عن اشراك سورية وايران في الحل العراقي

حمدان حمدان*

■ ما زال العالم في حالة تنبؤ عما ستؤول اليه السياسة الامريكية الخارجية، بعد زلزلة الانتخابات البرلمانية النصفية، التي اعتبرت بحق، بمثابة استفتاء امريكي شعبي، على السياسة التي قادها الرئيس بوش وحزبه الجمهوري، وعلى وجه خاص تلك التي اتصلت بغزو العراق وما نجم عن ذلك من مآس كارثية، بشرية ومادية، اصابت الشعبين الامريكي والعراقي، وما زالت تدور رحاها حتى الآن.

ورغم ان الحرب في مبتدئها، كانت اسرائيلية الدوافع وامريكية المنافع، الا انها الآن، ومع مرور ثلاث سنوات ونصف السنة على قيامها، والنتائج التي آلت اليها، فان خساراتها الماحقة بالنسبة للامريكيين، لم تعد تحتاج الى برهان او توكيد، فامريكا خسرت استراتيجيتها الكبرى في جعل العراق، قاعدة انطلاق اولى نحو شرق اوسط جديد، يحتضن بحار العالم من النفط والغاز، حيث عوملت الطاقة كمعيار اساس، لبلوغ وادامة السيطرة على القرن الجديد، وغير الخسائر البشرية والمادية المباشرة في العراق وحده، فان امريكا خسرت صدقيتها العالمية، حيث تعللت باعذار الغزو، فاذا هي مفلسة امام جميع الاعذار والذرائع، وحتى ازاحة الديكتاتورية وبناء الديمقراطية، فانها تنحت لصالح طلب الاستقرار، على ما في تصريحات وزيرة الخارجية الامريكية الاخيرة. واذن ففي غضون ثلاث سنوات بعد الاحتلال، تغيب اهداف وتحضر اخرى، الى ان نذهب مذهب ونستون تشرشل في تعليقه على السياسات الامريكية (انهم يحبون تجريب كل الطرق الخاطئة.. قبل ان يعودوا الى الطريق الصحيح). فمن العسير، حتى مع نتائج الانتخابات النصفية، ان يعود (مجمع) بوش وتشيني وبولتون.. الى رشده، لان السوابق السياسية التي مارسها هذا (المجمع) مع آخرين، تشير الى طريق واحد، في ممارسة قوة الحرب بديلا عن قوة العقل، فعقب حوادث ايلول (سبتمبر) الشهيرة، فان الغواية اخذت برأس بوش، حين اختار لنفسه ان يكنى برئيس حرب عكسا لرؤساء التردد والانتظار، وعندما استولى الجمهوريون في جائحة الحرب المفتوحة على (الارهاب)، خرج بوش ليعلن بوجه مشرق (ان الولايات المتحدة لن تسمح من الآن فصاعدا بمزاحمتها على عرش القوة العالمية، ولن نسمح بانبلاج قوة او مجموعة دول، تنافس امريكا استراتيجيتها واقتصادها.. على ساحة العالم).

وتظهر طبيعة النص في هذا الخطاب، وغيره كثير، اواخر العام 2004، مدى التناقض بين ما هو حرب على (الارهاب) او حرب على المكانة الاستراتيجية العالمية، فمواجهات الولايات المتحدة اثناء الحرب الباردة، كانت مع العالم الشيوعي، ضمن نظرية الاحتواء التي اطلقها المفكر الامريكي اليميني جورج كينان اوائل الخمسينات، وعلى الرغم من ان كينان، هو مؤسس هذه النظرية، الا ان استقالته من منصبه في وزارة الخارجية يومها، كان في اعتراضه على التمادي في تمديد نظريته (من الاحتواء السياسي ـ الاقتصادي المطلوب، الى الاحتواء العسكري الخطير)، فالمجمع العسكري الاقتصادي البترولي.. وجد مع انتهاء الحرب الباردة، وبروز النظام الدولي الجديد (اي نظام القطبية الاحادية) ما فسح في المجال لاطلاق نظريات استعلائية وما فوق بشرية، مثل نهاية التاريخ وصراع الحضارات ونظريات تقسيم العالم بين الخير والشر.

ثم بدأت تعبئة فكرية ودعائية مديدة، تبشر بسقوط عالم الحقائق القديم، لصالح حقائق جديدة خاصة يصنعها النظام العالمي الجديد، وفي الاساس فان عنصرية الاستعلاء، تكون في الفكر، قبل ان تكون في السلوك، فقد جرت مياه غزيرة في انهار المحافظاتية الجديدة، قبل ان تثب الى الحكم مع ريغان وورثائه من ال بوش، فالمفكر ارفينغ كريستول (من عتاة المحافظين الجدد) يكتب في الـ«وول ستريت جورنال»: (ان اهمية البوارج الحربية بالنسبة للنظام الدولي الجديد، هي كأهمية سيارات الشرطة للنظام الداخلي سواء بسواء).. وفي كتابه «ايام وليالي الحب والحرب»، يكتب ادوارد غوليانو: (على الجماهير السخيفة ان تقتات عقائدها مثل اجترارها للطعام، يعني ان تعتاد استهلاك الخيال، فأوهام الثروة تباع للفقراء، واوهام الديمقراطية للعبيد، واحلام النصر للمهزومين، واحلام القوة للضعفاء.. ولا شيء سوى هذا، يمكنه ان ينفع مع الشعوب المتخلفة)، وما نراه فان العقل المسكون بغطرسة القوة عند الكاتب غوليانو، هو تعبير عما سعى اليه المحافظون الجدد، ولو بصيغ مراوغة صريح تتطلبها (لباقة) ادارة قائمة على الحكم في واشنطن. وحتى عقل القوة، فانه لا ينزل عن عرشه، الا بمجابهة قوة مضادة يمكنها ان تعيد الى العقل رشده، ومع ذلك فان استبداد القوة في الفكر، هو الذي افضى بعقل الرئيس بوش، لان يصرح وهو في ساحة هانوي وتحت صورة ضخمة للرئيس الفيتنامي القائد هوشي منه، بأن ما حصل لامريكا في فيتنام يجعله (متفائلا) بما سيحصل له في العراق.. فأي عناد وهلوسة وانكار، يمكنها ان تجتمع في دماغ رئيس اعظم دول العالم؟! وهو في حال يطلب معه من دول الشر، ايران وسورية، ان تساعداه في مد الحبل لغريق في مياه دجلة الهائجة. فقادة القوات الامريكية الكبار، من وزن جون ابي زيد وجورج كايسي، اعلنا في شهادة لهما امام لجنة الخدمات المسلحة في مجلس الشيوخ (اواسط تشرين الاول/اكتوبر 2006) بان القوات الامريكية في العراق تعاني واقعا مريرا وعلينا ان نباشر سحب قواتنا تدريجيا من ذلك المستنقع).

اما رئيس اركان القوات الجنرال بيتر شوماخر، فيعبر عن قلق كبار الضباط وشكوكهم في قدرة القوات الامريكية على الاستجابة لنداء الواجب في حال اندلاع معارك اخرى في مناطق ساخنة مثل ايران او كوريا الشمالية. وفي المشهد العراقي الاخير، فان الطارئ الجديد، كان يتجلى في تشكيل لجنة خلاص مشتركة من الحزبين الكبيرين، وهي ما عرفت بلجنة بيكر (الجمهوري) وهاملتون (الديمقراطي)، ورغم ان تقرير هذه اللجنة لم يصدر بصيغته الرسمية والنهائية، الا ان (خطواته على الارض) بدت مبثوثة قبل طبعها على الورق، فما تسرب من هذا التقرير، فقرة اساسية تقول باشراك كل من سورية وايران عن طريق فتح قنوات دبلوماسية للعمل من أجل تحقيق الاستقرار المطلوب في العراق، كما ان هناك عناوين اخرى في التقرير تم تسريبها.. وكلها تشير الى ان الخيارات المطروحة، انما هي لحل المشكلة الامريكية في العراق، وليست لحل المشكلة العراقية في امريكا.. فرغم عدم التماهي في الادوار بين سورية وايران في العراق، الا ان الربط الاصطناعي في شراكة التوسط امريكيا، انما يعني الهروب من الاشارة الى السبب الحقيقي في هياج العراق وتنامي مقاومته الوطنية المطالبة برحيل الاحتلال، فاشراك سورية وايران لتوطيد الاستقرار، والصمت عن بقاء الاحتلال، يعنيان اعادة الوضع الى مربعه الاول في الصراع، وفي التفاصيل التي يحبذها الشيطان، فان وضع ايران في العراق، هو غير وضع سورية فيه من جميع المقاييس والاحوال، فسورية منذ اليوم الاول لاحتلال العراق، لم تكن في حالة تردد، فقد حزمت امرها في موقف قومي معاد لجميع اشكال الغزو الخارجية لأي بلد عربي، وهذا ما ظل الموقف عليه، حتى يومنا هذا، وعلى الرغم من امتعاضنا المرير لزيارة السيد المعلم وزير الخارجية السورية لتشكيلة الحكم الاحتلالي في العراق، فان المعلم لم يمانع نفسه حين اصر وهو في وكر الذئاب من رئاسة وحكومة وميليشيات اجرامية، ان يقول (ان سورية تطالب بوضع اجندة محددة لرحيل قوات الاحتلال من العراق).. وهذا ما حدا بالمالكي لأن يغمز من طرف خفي (طوال المدة.. فقد كنا نتوقع من سورية مواقف اخرى) اما عبد العزيز الحكيم، ممثل الحزب الايراني في العراق، فقد طالب الوزير السوري، بعقد معاهدة امنية، يتم بموجبها (تبادل المجرمين) اي تسليم آخر ما تبقى من قوميين في شعار عروبة العراق، لايداعهم في جادرية صولاغ، واما صاحب فلسفة (النواصب من السنة) مقتدى الصدر، فلم يتسن له مقابلة المعلم، كي يطالبه باعتقال البعثيين في سورية!

وفي الحقيقة العيانية، فان ثمة ما لا يمكن جمعه بين ايران وسورية بخصوص العراق بعد احتلاله، فايران سبق لها، ان دعمت جميع آليات الاحتلال وما يسمى بالعملية السياسية، من مجلس الحكم الانتقالي، بتعيين طوائفي شعوبي من الحاكم الامريكي بريمر، الى اختراع دستور بغايات تقسيمية اثنية وطائفية، الى المصادقة على الانتخابات التي وصفها ممثل الأمم المتحدة الدائم، السيد اشرف قاضي، بكلمات ذات مغزى (انها انتخابات عراقية ولغايات عراقية) وفي هذا ما يمكن تجنبه من وصف محرج آخر.

وفي الزمن المستقطع للوصول الى رد السيادة، فقد عاش العراق انجازا سياديا بتحية الجماهير، ولكن في ظل وجود مئة وخمسين الف جندي احتلالي، اذ ما ان استوت السيادة فوق عرشها، حتى شرعت ارهاصات التمزيق في اطلاق النعوت الحداثية بين (اطياف سحابية غمامية او رؤيوية سماوية) و(مكونات ارضية مادية ضاربة في الجذور بعيدة عن السماء والاطياف)! على ما في البلاغة من مطلوب لاخفاء ما تضمر النفس الامارة بالسوء.. ولم يكن هو التناقض الوحيد مع عدوانية الشيطان الاكبر الذي بات على الحدود، فايران ويا للمصادفة، هي التي عزت مع واشنطن، فقدان الامن العراقي، لجموع الدمويين الصداميين وغيرهم من الغرباء التكفيريين ومجاميع اضافية من الارهابيين، مما يتعارض مع التقويم السوري للمقاومة الوطنية المشروعة، مع ما جاءت عليه مؤتمرات البعث في سورية، بل ويتناقض كل التناقض مع ما ادلى به الرئيس بشار الاسد غير مرة، عن تمييزه بين المقاومة الوطنية المشروعة ضد الاحتلال، والعمليات الارهابية التي غالبا ما يكون وراءها محطات استخباراتية عالمية واقليمية معادية لتحرير العراق في الاساس، ففي العراق اليوم بعد تدمير الدولة واجهزتها العسكرية والامنية والاقتصادية.. يسرح الالوف من عملاء استخبارات امريكية واسرائيلية وجوارية.. اما الاقتتال الطائفي، فليس من مصلحة المقاومة في شيء، بل هي تجر اليه قسرا، رغم ممانعتها حتى الآن، من الانخراط في افخاخه وحبائله.

ما بين سورية وايران، رغم التوافقات الاقليمية التاريخية، الموروثة منها وغير الموروثة، ما لا يجتمع بخصوص العراق، فسورية تريد عراقا محررا وسيدا لجميع ابناء شعبه بسواسية المواطنة دون تمييز، تماما كما كان العراق منذ فجر استقلاله الوطني وحتى احتلال بغداد، فما قيل عن الاستئثار الطائفي او القومي او العشائري.. لم يكن في جوهره، غير اراجيف مسوقة، كغيرها من الاراجيف التي سيقت كسبب صفيق لغزو العراق، والمشكلة ان اصحاب الاراجيف يعترفون بها فيما هم يبقون على (اكاذيب تاريخية) تصعد مع الصراخ والمظلومية ولا يمكن اثباتها بغيرها، اذ كيف يمكن للبعث العراقي ذي الاكثرية الشيعية (قيادات وقواعد).. ان يعمد الى تمييز شيعته عن سنيته؟! من جهة اخرى، فان سورية تتوسل الطريق المؤدي لاسترداد ارضها المحتلة في الجولان، وهو طريق لا يمر من بغداد اليوم، بل ربما كان يمر من بغداد الامس، فقبور شهداء العراق ما زالت تشوي في جولان تشرين، رافعة راية التعاضد العروبي المكيف، الذي يرفضه عراق الدستور المخزي، ومكونات الطوائفية والشعوبية بصفاقة انزال الراية العراقية العروبية التي استشهد تحت ظلالها ابطال الجولان.

من جهة ايران، فان لها وضعا آخر مع امريكا، وهو وضع يمكن ادراجه تاريخيا، تحت عناوين المناورات والصفقات، وفي هذا معنى تبادل المنافع (المصالح)، بطرق براغماتية مشتركة، ومن يتابع خط السيرورة السياسي الايراني بعد احداث ايلول (سبتمبر) يلمس نصوع الصفقات الايرانية ـ الامريكية، لا منذ فضيحة ايران غيت فحسب، بل وابتلاع وديعة الطيران العراقية اللاجئة لايران في فترة عاصفة الصحراء 1990، واعتبارها تعويضات حرب (173 طائرة) علما ان ولاية رفسنجاني كانت قد قبلت (بحمل الامانة) وردها حين الطلب.. واما الصفقات الاخرى في افغانستان والعراق، فتفاصيل تخرج عن نطاق هذا الخطاب وفي التماثل والتناقض، فان جميع المناورات الناجحة ايرانيا مع امريكا، لا تدخل اسرائيل في مقامها، اي انها مناورات خارج ما يمس امن اسرائيل ومستقبلها، فايران تحرص على الا تكون اسرائيل ورقة من بين اوراقها المناوراتية بمعنى صراع الوجود، ولو ان التهديدات اللفظية بلغت شأوها اخيرا مع رئاسة السيد احمدي نجاد، وتاليا فان القدرة النووية المنشودة ايرانيا، والممنوعة غربيا وامريكيا، هي في منتهاها قدرة ردعية في المقام الاخير، اي انها هي الحالة التي بتوازن رعبها، تؤمن انبساط حالة مديدة من اللاسلم واللاحرب في المنطقة، وهي حالة مثالية بالنسبة لدوام الاحتلال الاسرائيلي، اذ غالبا ما اشار تاريخ التوازن النووي، الى وقوع تسويات في النهاية، ولو لحساب طرف على حساب طرف آخر، لكن المشكلة النووية الايرانية، ليست تبسيطية الى درجة السماح لدولة اسلامية، ان تمتلك الذرة من خارج النادي النووي الذي تديره الولايات المتحدة، اما النموذج الباكستاني وقبله الهندي النووي، فانهما يقعان في مجالات استراتيجية عالمية اخرى، فايران لا تلعب لعبة النووي تهديدا لامن اسرائيل، اذ منذ هيروشيما لم يعد النووي مجال رهان، وايران من جهتها تحرص كدولة مسؤولة على الا يكون النووي محل اختبار في شروط تفوق الخصم عليها في هذا المضمار، الا ان ايران من زاوية اقليمية خاصة، تسعى لكي تكون رقما صعبا (شريكا جديرا) على الخارطة من بحر قزوين الى آخر مربع في الخليج العربي وفي مقدمته العراق.

الآن، وبعد الانتخابات النصفية وما آلت اليه، فان الولايات المتحدة، بتوافق حزبيها، وبعد الاحداث اللبنانية الاخيرة، تسعى لتحميل سورية المسؤولية، وتاليا التخلص من هواجس اشراك سورية في الحل العراقي، او غيره من مشكلات المنطقة، ففيما يتوافق نواب مؤثرون في الكونغرس (جوزيف بايدن وريتشارد لوغار) مع شخصيات سياسية وفكرية نافذة مثل (الباحث رويل غيربت من معهد امريكان انتربرايز.. وجوناثان الترمان مدير برنامج الشرق الاوسط في معهد الدراسات الاستراتيجية) على ان سورية ليست ضرورية في المسألة العراقية، (على عكس ايران التي لها نفوذ مباشر في الساحة العراقية، وان المطلوب من سورية هو ضبط حدودها مع العراق، وعدم ايواء ارهابيين..) تماما مثل بضاعة يراد ابراز عيوبها لتخفيض اسعارها (نظرية السوق البدوية لهنري كيسنجر)، فسورية لا نفوذ مباشر لها في العراق، لكن ما تمتلكه سورية من نفوذ كامن، قد يكون اقوى بكثير، وهذا ما يراد من صفقة العراق ادخال سورية في افخاخه، فالموقف السوري من الاحتلال للعراق، هو موقف رافض، لكنه مع ذلك دون المستوى الشعبي المطلوب، فشعب سورية يطمح لانفتاح عملي وفعال مع المقاومة الوطنية العراقية، وشعب سورية لا يريد سفارة للمالكي والحكيم وطالباني في دمشق، وشعب سورية يرفض وساطة رسمية سورية، في مناخ عراق محكوم بإرادات احتلالية ولا وطنية وغير عراقية، فاذا ما ارتاب احدهم فيما يريد شعب سورية وكل الأمة من حوله، فما عليه سوى ان يصل الى نسبة التسعين بالمئة من تلقاء نفسه في استفتاء عريض من القامشلي الى القنيطرة او من الدار البيضاء الى البصرة.

انه يريد طرد المحتل اولا وثانيا وثالثا.. وهو يبتغي الانعتاق والحرية بكامل معانيها الانسانية والشاملة وبقوة موازية.

ان امريكا تغرق في العراق، فلا تغيثوها من جديد!

* كاتب من فلسطين يقيم في سورية

حكومة وحدة وطنية أم حكومة رفع حصار؟

د. ابراهيم ابراش*

■ بدأ الأمر بتوق ورغبة ثم انتظار وترقب ثم قلق وحذر ثم حالة من الاحباط واللامبالاة، ثم جاءت التصريحات والتفسيرات المتناقضة والمثيرة للبس حول برنامج الحكومة والغرض من تشكيلها، ثم المماطلة والتأجيل المتوالي للاعلان عنها، هذا هو حال الفلسطينيين قبيل تشكل حكومة الوحدة الوطنية الموعودة، الا أن أكثر ما استوقفنا هو ربط الاعلان عن الحكومة برفع الحصار، اذا أضفنا لذلك ما نلمسه على الأرض من غياب أي جهود تعبوية وتحسيسية من كل الأطراف لأهمية وجود حكومة وحدة وطنية، كل ذلك يدفعنا للتساؤل مجددا هل هناك ادراك لأهمية تشكيل حكومة وحدة وطنية؟ وهل توجد نية حقيقية بتشكيل هذه الحكومة؟ ولو شُكلت الحكومة المنشودة ولم يُرفع الحصار فهل سيفرط عقد حكومة الوحدة الوطنية؟ أو بصيغة أخرى هل حكومة الوحدة الوطنية ضرورية لرفع الحصار فقط أم لأن الوضع الطبيعي هو وجود حكومة وحدة وطنية؟ واذا كان الحصار مبررا لتشكيل حكومة وحدة وطنية أليس من الأجدر ان يكون الاحتلال والارهاب الصهيوني المتواصل أكثر دافعية لتشكيل حكومة وحدة وطنية؟

عشرات الأسئلة تزاحمت في عقولنا خلال الأسابيع الأخيرة ونحن نراقب تراجيديا تشكيل حكومة الوحدة الوطنية، وكنا نعتقد بان الحصار هو عامل اضافي لتشكيل هذه الحكومة وليس السبب الوحيد، ذلك أن شعبنا الذي يخضع للاحتلال منذ عقود لا يمكنه مواجهة الاحتلال الا بتوحيد كل جهوده بل يحتاج الأمر حتى لتوحيد جهود الأشقاء العرب والمسلمين، ومن هنا كان مطلب القيادة الموحدة على رأس سلم اهتمامات حركة المقاومة الفلسطينية بكل فصائلها منذ الستينيات، وخصوصا أن التعددية الفصائلية لم تكن تعبيرا عن نزوع ديمقراطية بل ما كانت سوى نتيجة تدخل عربي واقليمي بالقضية.

ولو عدنا قليلا لوجدنا أن مطلب الوحدة الوطنية قد تجسد نسبيا عندما استطاعت الفصائل التوافق حول دخول منظمة التحرير والاعتراف انها ممثل شرعي ووحيد، وبالرغم من العثرات والسلبيات التي صاحبت مسيرة هذه المنظمة الا أنها شكلت عنوانا للقضية الوطنية ووحدت الرؤية والهدف لسنوات طوال، ولولا وجود منظمة التحرير بهذه الصفة لما كانت القضية وصلت لكل العالم وما كان للشعب الفلسطيني سفارات وممثليات في أكثر من مائة دولة . وحتى عندما بدأت المتغيرات الدولية والاقليمية تزعزع ما كان يُعتبر ثوابت وطنية، فان المرونة التي مست هذه الثوابت كانت محل توافق الجميع تقريبا.

مع ظهور حركة حماس والجهاد الاسلامي بداية انتفاضة 1987 شكلت هذه القوى اضافة نوعية لحركة المقاومة الفلسطينية وعززت من نهج المقاومة، ومع أن هاتين القوتين كانتا خارج اطار منظمة التحرير الا أن التنافس والتسابق بين الطرفين كان في ميدان المعركة وفي مواجهة الاحتلال، مع أن بعض الممارسات والتصريحات من حركة حماس كانت تؤشر على التهيؤ لاحتلال موقع البديل للمنظمة. احتدام المواجهة مع الاحتلال خلال سني الانتفاضة الأولى ثم الثانية كان يُعطي السبق لهدف مواجهة الاحتلال على تفجير مسألة لمَن السلطة، الا أنه خلال هذه المرحلة لم تتوقف المطالب الشعبية ومن كل الفصائل تقريبا بتشكيل قيادة وحدة وطنية سواء باحياء وتفعيل منظمة التحرير لتستوعب القوى الجديدة أو بتشكيل قيادة ميدانية للانتفاضة وتوحيد الخطاب الفلسطيني، وبالرغم من عشرات جولات الحوار داخل الوطن وخارجه وتوقيع عدة وثائق بهذا الشأن الا أنها بقيت حبرا على ورق ولم يُنجز هذا الهدف النبيل والحيوي للقضية الوطنية بل ازدادت الأمور سوءا فيما يتعلق بالعلاقة بين فتح وحماس.

استمر الأمر كذلك لحين دخول حركة حماس العملية الانتخابية منذ 2005، ومَن يشارك في الانتخابات انما يدخل مجال التنافس على السلطة السياسية وفي اطار القانون المؤسس للسلطة، وبهذا الدخول تغيرت قواعد اللعبة السياسية سواء ما بين حركة حماس وحركة فتح ومعها منظمة التحرير، أو بين كليهما من جانب والاحتلال من جانب آخر. وكنا نأمل أن تكون مشاركة حماس بالنظام السياسي ثم فوزها بالانتخابات فرصة لان تُحقق الممارسة الديمقراطية ما لم ينجزه الحوار ونظام الكوتا، الا أن النظام السياسي ازداد تأزما سواء فيما يتعلق بالمكونات الداخلية للنظام أو بينه والأطراف الخارجية وكان الحصار، فتجدد الحديث عن تشكيل حكومة وحدة وطنية.

المراد مما سبق هو التأكيد بانه يجب أن لا يتم التعامل مع مطلب تشكيل حكومة وحدة وطنية كعمل تكتيكي أو ظرفي لتجاوز او التحايل على الحصار من طرف حركة حماس أو مناورة للتحايل على نتائج الانتخابات وعلى الحكومة الحالية من طرف حركة فتح، بل يجب التعامل معها كخيار استراتيجي وضرورة حياتية للفلسطينيين، وتصحيح لخطأ كان سببا في كثير من تعثر المشروع الوطني. عدم وجود حكومة وقيادة وحدة وطنية خلال السنوات السابقة كان خللا استراتيجيا، وهو خلل لا يعود لأن فتح كانت راغبة بالتفرد بالسلطة، بل لأن حركة حماس كانت ترفض الاعتراف بشرعية السلطة و بمرتكزات النظام السياسي الأوسلوي كما كانت تسميه. وعليه لا يجوز وضع اشتراطات على مبدأ وجود حكومة وحدة وطنية، فان لم يؤد تشكيل هذه الحكومة لرفع الحصار فيجب أن لا نقول بأن مبرر وجود حكومة الوحدة الوطنية قد انتفى بل يجب أن تعمل هذه الحكومة على رفع الحصار ومواصلة العمل بالنسبة لكل المهام الوطنية. ربط تشكيل حكومة وحدة وطنية برفع الحصار انما يفقد هذا المطلب الوطني النبيل قيمته ومعناه.

وأخيرا ندرك بأن السبب في تأخير قيام حكومة وحدة وطنية لا يعود فقط لاعتبارات تخص تشكيل الحكومة سواء تعلق الأمر ببرنامج أو أشخاص أو أهداف الحكومة الخ، بل هناك أسباب أخرى أكبر وأشمل من مسألة الحكومة، ونقصد الجندي الاسرائيلي الأسير واطلاق الصواريخ من غزة والاجتياحات الاسرائيلية المتواصلة والمعابر وتفعيل منظمة التحرير الفلسطينية ورفع الحصار، وبالتالي نجاح الفلسطينيين في التوصل لتفاهمات داخلية حول تشكيل الحكومة لن يحل المشكل، بل يحتاج الأمر لجهود اقليمية ودولية لحل القضايا المشار اليها، وهذا يعني بأننا أمام صفقة شاملة أو اعادة صياغة للنظام السياسي الفلسطيني سواء فيما يتعلق بمكوناته الداخلية او علاقاته الخارجية، ومن هنا تتأتى أهمية وجود حكومة وحدة وطنية حقيقية ذات برنامج سياسي واضح لمواجهة هذه الاستحقاقات، وكلما كانت الحكومة المقبلة حكومة وحدة وطنية حقيقية كلما كانت أكثر قوة في التعامل مع القضايا العالقة وفي مواجهة اسرائيل على كافة الصعد.

نؤكد مرة أخرى أن لا بديل لحكومة الوحدة الوطنية الا حكومة وحدة وطنية، حكومة لا يخضع قيامها لرغبات حزبية أو شخصية ولا لاشتراطات خارجية، حكومة كل الشعب وقواه السياسية الفاعلة. حكومة وحدة وطنية هي مطلب وطني اليوم وغدا وما دام الشعب خاضعا للاحتلال والمشروع الوطني لم يُستكمل، سواء تم رفع الحصار أم لم يرفع فحكومة الوحدة الوطنية ضرورية، مفاوضات ولادة الحكومة صعبة وشاقة، ولكن نتمنى أن لا يكون الخلاف مرتبطا بالمربع الأول وهو غياب القناعة الصادقة بتشكيل هذه الحكومة وغياب برنامج سياسي واضح خال من الغموض الذي يتيح المجال لمن يريد افشال الحكومة أن يفعل ذلك.

* كاتب من فلسطين

يا عيني عليك يا مصر:
حين يغدو الجهل سمة وشارة وعلامة!

فاطمة ناعوت*

■ «وكم ذا بمصر من المضحكات/ ولكنه ضحك كالبكا». اراني مجددا مضطرة لاستدعاء ابي الطيب المتنبي والنهل منه كلما آلمني/ابكاني/أضحكني امر من امورك يا مصر يا حبيبتي! فهل اكثر من بيته الشعري هذا ألما ودقة ومسا لراهن ايامك؟

المصريون يرفعون إحدى اليدين مشرعين السبابة الرافضة في وجه النظام والازهر مطالبين بحرية التعبير عن الرأي، وباليد الاخرى يكممون من يريد ان يعبر عن رأيه من الحكام! الحرية للكتاب والمثقفين والفنانين والصحافيين وحسب، لكن الوزراء ليسوا كتابا ولا مثقفين ولا حتى بشرا من حقهم ان يتكلموا الا بقدر ما يغازل مشاعر البسطاء من المصريين! البسطاء هؤلاء الذين يستقون معارفهم وامور دنياهم ودينهم من مشايخ الأرصفة وشرائط الكاسيت التافهة ومكبرات الصوت التي تصرخ بالسنة ظلاميين معممين لا يعرفون من الدين وجوهره الا بقدر ما يعرف خياط الملابس عن علم تشريح الجسم البشري والفيسيولوجي. ثقافة الميكرو ـ باص هي المعلم الديني الأول في بلادي الآن، ورقم 090 في الهاتف، وفي افضل الاحوال كتب الشعوذة التي تئن بها الارصفة والمكتبات والاكشاك ومحطات مترو الانفاق ذاك انها تحقق اكبر نسبة مبيعات في السوق المصرية. اما مضامينها فلا تخرج كثيرا عن مدى شرعية دخول الحمام بالقدم اليمنى وماذا نفعل حول كارثة انقلاب الشبشب على ظهره وكفارة ذلك. شيوخ تحت السلم هؤلاء غدوا اكثر شهرة ومصداقية من محمد عبده وزكي نجيب محمود ومحمود امين العالم!

يا مسكينة يا مصر! اهكذا غدوت يا هبة النيل وربيبة بناة الهرم؟ هل جاء عليك حين من الدهر يغدو الجهل فيك سمة وشارة وعلامة؟ انت التي علمت العالم الحضارة والعمارة والفلك والطب والتحنيط والكتابة والازياء ونظم المدنية الاولى. هل جاء عليك يوم يجعل نساؤك فيه نساء مخيمات بالسواد كغربان المقابر نموذجا لهن. هل غدا الموديل الوهابي والنفطي مطمحا لهن؟ هن بنات وحفيدات هدى شعراوي التي القت بحجاب عقلها وراسها عام 1923 اثر حضورها المؤتمر النسائي العالمي في ايطاليا! يستكثرون على الرجل ان يقول ان الحجاب ردة للوراء! ولم يزد عن قول رأي فني جمالي نقوله نحن الكتاب والشعراء والمثقفين كل دقيقة في مجالسنا وقصائدنا وحواراتنا.

نعم. لنا حرية التعبير وهو ليس عليه الا ان يبتلع لسانه في حلقه ويصمت لانه مرزوء بتهمة لقب «وزير الثقافة المصري». ويا له من منصب ملعون اذا ما حضر في بلد غابت فيه الثقافة وتراجع فيه المثقفون! هو الذي رفض ان يتنازل عن لقب «الفنان» طوال مشواره، ليس من حقه ان يقول رأيا فنيا تشكيليا جماليا ما دام وزيرا. رغم انه لم يشرع للدين ولم يجتهد ولم يكفر، مثلما يكفرنا الاخوان المسلمون كل يوم ويلعنوننا ملوحين لنا بجهنم وبئس المصير بوصفنا خارجين عن الدين وبوصفهم حاملي صكوك الغفران ومفاتيح الفردوس وجنازير جهنم. بل كل ما صدر عنه هو التالي: «الدين اصبح الآن مرتبطا بالمظاهر فقط رغم ان العلاقة الايمانية بين العبد وربه لا ترتبط بالملابس ـ حجاب المرأة يكمن في داخلها وليس في خارجها ولا بد ان تعود مصر جميلة كما كانت وتتوقف عن تقليد العرب الذين كانوا يعتبرون مصر في وقت من الاوقات قطعة من اوروبا ـ الحجاب ليس له علاقة من قريب او بعيد بالتقوى ـ النساء كالورود الجميلة التي لا يجب حجبها». وهل يختلف اثنان حول كل ذلك؟ ولماذا لم تقم الدنيا هكذا حين افتى الداعية الاسلامي المستنير «جمال البنا» بعدم مشروعية الحجاب في كتابه الاخير؟ قال البنا بالنص: «لا حاجة الآن للحجاب لانه يعوق المرأة عن حياتها العملية، وانه لا يوجد في الاسلام ما يؤكد فرضه».

واضاف: «الحجاب فرض على الاسلام، ولم يفرض الاسلام الحجاب. فشعر المرأة ليس عورة، بل يمكن لها ان تؤدي صلاتها بمفردها وهي كاشفة شعرها». مشيرا الى ان المجتمعات الذكورية التي تخصص المرأة للبيت فقط هي التي تلح على هذه النقطة. فلماذا لم يثر عليه نواب البرلمان الموقر واعضاء الحزب الوطني الذي يكرس الآن الارهاب بامتياز؟ لانه ليس وزيرا. يعني الطبخة كلها سياسية وليس للدين من مكان بها. انه لمن احقر الامور مغازلة عقول البسطاء من المواطنين بدلا من تنويرهم. والله ان هذا لهو الجرم عند الله. نقليون ينقلون ظلامهم الى نقليين، ومن خراب الى خراب ترفلين يا مصر.

لشد ما غدا وصف «المحظورة» التي تعقب عبارة «جماعة الاخوان» مضحكا. اي حظر يا مصر وهي فيك اكثر حضورا من الحكام الشرعيين ومن الشعب؟ اي حظر ولهم في البرلمان اكثر من ثمانين كرسيا؟ ماذا سيفعلون بنا لو حكموك يا مصر؟ لقد توعدونا بالويل والثبور وبالضرب بالجزم نحن ابناء شعبك المساكين. قالوا كل امرأة غير محجبة هي خارجة عن الدين وزوجها وابنها وابوها وولاة امرها الى آخر القائمة. هذا هو الدفع للارهاب بعينه. لانني لن اندهش غدا حين يقتل صبي امه او اخته لانها غير محجبة وهو يظن انه انما يجاهد في سبيل الله. وارجو الا نقرأ في صحف الغد ان ولدا اهوج قد ضرب الوزير بمطواة ـ كما حدث مع نجيب محفوظ ـ ثم يرمى بالخلل العقلي، وهي التكئة الجاهزة التي نبرر بها الارهاب في مصر الآن.

كنت استعرض البوم الصور الخاص بعائلتي فرأيت صورة لامي وهي في مقتبل العمر مع شقيقتها وهما ترتديان فستانا بديعا مكشوف الذراعين كما نرى في موديلات فاتن حمامة وماجدة ومريم فخر الدين. سألتها: الم يكن الشباب يضايقونكن وانتن بهذه الملابس الاوروبية؟ فاستنكرت سؤالي قائلة: ثقافة المعاكسة والتحرش بالنساء هذه لم نسمع بها الا في ايامكم السودا دي! زمان كان الناس راقين والمجتمع رفيع الخلق. وهل منع الحجاب المستشري في كل جنبات مصر الآن الانحلال الخلقي وتدهور الوعي والفساد وكل الوان التدني؟ بالعكس. ذاك ان التطرف في امر ما، يصل في مداه الآخر الى الامر النقيض، وهي القاعدة الماركسية الذهبية. يعني الاستماتة في المغالاة في تحجيب المرأة هو لون من الهوس الجنسي في صورته الشاذة عند المرأة والرجل على السواء. المفروض ان المرأة تخرج من بيتها تاركة «نوعها» في غرفة النوم لتخرج للمجتمع مواطنا او انسانا متحررا من النوع منطلقا نحو مسعاه او مشروع حياته وعمله. هذا في الحال الصحية. لكن حين يكون الجنس مسيطرا بقوة على عقلها سوف تنهج احد سبيلين كل منهما نقيض للآخر. اما ان تتعرى جدا او تتخفى جدا. وكلاهما علامة غير سوية وغير صحية لانها تشي بوطأة حضور الرجل والجنس على عقلها وروحها. ترى نفسها ظبيا خارجا نحو غابة مليئة بالذئاب والضباع لكي يصاد او يصيد! ثم دعونا نجري احصاء امبريكاليا حول عدد المحجبات اللواتي قد قرأن القرآن كاملا ولو مرة واحدة في حياتهن. او حتى جزءا معقولا منه. كم منهن اصلا قد اختارت اسلامها ولم ترثه عن ابويها؟ اعرف النتيجة مسبقا ذاك ان الفتاة التي تنظف منزلي الآن محجبة وامية ولما سألتها عن الاسلام وفروضه قالت انها لا تعرف عنه اكثر من كونه امر بالحجاب وبالصلاة على النبي ولا شيء آخر. اسألها الآن عن مصدرها في المعرفة فقالت: اهم بيقولوا كده وخلاص. بيقولوا!! يعني كل الدين قد اختصر في شعر المرأة! كلنا مسلمو وراثة حتى المتشددين منا، ولا استثني احدا حتى الغلاة الذين يكفرون الاديان الاخرى. كلنا نقليون نحمل اسفارا فوق اكتافنا لم نقرأ منها شيئا، وثقافتنا كلها تعتمد مبدأ: قالوا له!

التقيت شاعر عامية مصريا وأسرته فهالني ان طفلته ذات الست سنوات محجبة. وبعدما افقت من صدمتي ناقشته فقال لي انه سيترك لها حرية الاختيار حين تبلغ!!!! لم اعرف وقتها ابكي ام ابكي. لكنني ابتسمت من منطقه المعكوس. وهو الشاعر! ينتزع حرية الطفلة في مهدها ثم يلوح لها بها عندما تعي! فأي شعريا مصر واي شعراء! وقال لي صديقي الذي يذهب الى عمله بالميكرو ـ باص انه استمع الى كاسيت احدى الخطب الدينية (مجازا)، وكان الشيخ (مجازا ايضا) يصرخ ويقول بالنص الواحد: